المشرق

ترجمة الطيب الأثر

الخوري نيقولاوس الصائغ

ارسل الينا احد افاضل رهبان الروم الكاثوليك الحلبيين من دير الشير افادات عديدة في ترجمة فريد وطنهِ وفخر ملّتهِ الخوري نيقولاوس الصائغ نقل اكثرها عن سجلّات الرهبانيّة فاقتبسنا من انوارها واجتنينا من اثمارها واضفنا اليها ما اتّصلت اليهِ يدنا من معلوماتنا الخاصّة فادمجناها بها وأخرجنا سيرة هذا الرجل الفاضل والشاعر المجيد على الصورة الآتية (ل. ش)

قد امر الربُّ في انجيلهِ الطاهر ولهُ الامر المتبوع والكلام المسموع بالّا توقد السُّرج وتُجعَل تحت المكيال بل توضع فوق المنـارة ليستضيء بنورها كلُّ من في البيت. وكذلك قد شاء الله عزّ وجلّ ان يقيم في كنيستهِ رجالًا عظاماً جعلهم ملحاً للارض ونوراً للعالم المسيحيّ فلا يحسن ان تبقى ضياؤهم محجوبةً وافضالهم في زوايا النسيان مدفونةً. وممَّن متّع الله بهم شرقنا العزيز ذلك الرجل الشهير بل الكوكب المنير الخوري نيقولاوس الصائغ الذي ادّى لطائفتهِ اجلَّ الخدَم وترك من بعدهِ آثارًا طيّبة فاح عطرها وانتشر ذكرها. غير انَّ ترجمة هذا الاب المفضال كانت حتى الآن مودعةً في بطن الاوراق لم يُرَ منها الّا نبذة قصيرة لا تبلغ الصفحة الفرد ظهرت في مختصر تاريخ الروم الملكيين (ص ٤٩) ولمّا كانت هذه اللمعة لا تروي غليلًا ولا تشفي عليلًا بادرنا بتسطير هذه الترجمة اودعناها ما امكننا من اخبار هذا العالم المشهور علّها تبعث في قلوب احد ابناء ملّة الروم الملكيين الرغبة في ان ينقّبوا عن بقيّـة آثاره ويصنّفوا لتحليد

ذكرهِ سيرة مطوَّلة يضمّنونها تفاصيل حياتهِ مع اخبار الرهبانيَّة الحنَّاويَّة التي كان احد جهابذتها وافرادها. وقد قسمنا هذه المقالة ثلاثة اقسام نبحث في القسم الاوَّل منها عن اصل الخوري نيقولاوس واخبارهِ الى يوم زهدهِ في الدنيا وترهُّبهِ. وفي القسم الثاني عن ترجمة حياتهِ في الرهبانيَّة ونختم القسمين بقسم ثالث نذكر فيهِ فضائلهُ وآثارهُ

١ طفولية الخوري نيقولاوس وشبابُهُ

قد ذكرنا غير مرَّة في المشرق ما نالتهُ الشهباء من الفخر في ختام القرن السابع عشر واوائل القرن التالي اذ قام في ظهرانيها بين كلّ الطوائف الكاثوليكية رجال عظام امتازوا فضلًا وفضيلةً نهجوا لذوي ملَّتهم طريقًا رحبة يسلكونها من بعدهم فتبلّغهم اوج العزّ والمجد. والخوري نيقولاوس الصائغ احد هؤلاء المشاهير الذين اصطفاهم البارئ في عنايتهِ الصمدانية ليسعوا في هذه النهضة الادبية بين الطوائف الشرقيَّة

وُلد هذا الفاضل رحمهُ الله في مدينة حلب في بعض شهور سنة ١٦٩٢ من والدين جمعا بين خيرات الدين والدنيا وكان اسم والدهِ نعمة او نعمة الله وعُرف بالصائغ لما كان يزاولهُ من صنعة الصياغة في بلدهِ. وكان الابوان من طائفة الملكيّين راسخين في التُّقى وخوف الله وعلى ذلك ربَّيا اولادهما. ولا نعرف من هؤلاء الَّا ابنيهما نيقولا ويوسف (١ وقد توفّي يوسف في عزّ شبابهِ سنة ١٧١٦ فرثاهُ الخوري نيقولا بقصيدة بليغة المعاني اودعها ارقَّ العواطف تحتوي مئة بيت اوَّلها:

خطبٌ مُريعٌ ثابتٌ لا يُصْرَفُ وقضاء ربّ فهو لا يتصرَّفُ

وفيها يعزّي اباهُ بقولهِ:

ابتاهُ ثِقْ بالله وارضَ بحكمهِ فهو الذي احكامهُ لا تُعْرَفُ
فاحزَنْ على ابنك حُزْن داود على آبيشَلُومَ وما بذاك تكلُّفُ
فالاصل يُرجى بعد قطعِ فروعهِ ان تنبتَ الاغصانُ منهُ فيُخلِفُ

ورضع نيقولا منذ صغرهِ افاويق الصلاح ونشأ على حبّ الفضيلة والديانة ووقعت

١) وفي ديوانهِ (ص٣٠٣) تاريخ لميلاد انطون بن موسى الصائغ سنة ١٧٥١. ولعلَّ موسى احد اخوة صاحب الترجمة

تعاليم والديهِ في تربة جيّدة اثمرت بعد قليل اثمار البرّ والطهارة

وكان الولد مع تقواه متوقّد الفهم ذكيّ القلب كما هو الغالب على احداث الشهباء. فلمّا ترعرع جعلهُ والداهُ في احد المكاتب فاظهر من النباهة والميل للعلم ما حمل معلّميهِ على القول بانهُ سيكون من رجال وطنهِ المعدودين. على انّ والدهُ اذ رآهُ احرز مبادئ العربية اخرجهُ من المكتب ليعلّمهُ صنعتهُ. فجدَّ الولد في اتقانها وبرع فيها بعد زمن قليل الّا انّ قلبَهُ منذ شبَّ كان مائلًا الى الحياة النسكية والزهد عن الدنيا وهذا ما كان يحدو بهِ الى ان يقضي اكثر اوقات فراغهِ في زيارة الكنائس واقامة الصلوات والتردُّد على الكهنة والعبّاد

وكانت في غضون ذلك نشأت في الشهباء بين الطوائف الشرقيّة تلك الحركة الكاثوليكيّة التي أشرنا اليها مرارًا في المشرق (راجع المشرق ٢ : ٤٤٢ و ٥ : ٣٩٧ الخ) بهمّة الآباء المرسلين وبعض رجال الصلاح. وقد نال الطيّب الذكر عبد الله زاخر صاحب التآليف الشهيرة ونيقولاوس الصانع من هذه الحركة ما لا حاجة لذكرهِ هنا (١

ومع هذه النهضة الدينيّة كانت حدثت نهضةٌ أخرى ادبيّة فانّ بعض شبّان الشهباء من الأُسر المعتبرة اتّفقوا على ان يأخذوا العلوم اللسانيّة من مناهلها ويجدُّوا في اقتباس الآداب. ولمّا رأوا انّ درس العربية بفروعها ضعيف عند اهل جلدتهم اتّفقوا على ان يأخذوا اصول هذه اللغة من بعض شيوخ الشهباء المسلمين. ولم يكن اذ ذاك في حلب من يفوق في العلوم اللسانيّة الشيخ سليمان الحلبيّ الشهير بالنحوي قرأوا عليهِ الصرف والنحو وتلقّوا العلوم البيانيّة ودرسوا العروض حتى نبغوا في تحصيل هذه العلوم بعد مدّة. وكان اوّل من سبقهم الى ذلك جبرائيل بن فرحات فخر زمانهِ ولمام ملّتهِ المارونيّة وكان مولدهُ سنة ١٦٧٠. وتبعهُ ميخائيل حكيم الذي رُقّي بعد ذلك الى اسقفيّة حلب وجلس على الكرسي الانطاكيّ بعد كيرلُّس طاناس. ثمّ الشماس عبد الله زاخر صاحب التآليف الشهيرة وعبد الله قرألي الماروني الذي سُقّف على بيروت بعد ان صار رئيساً عامًّا على الرهبانية المارونيّة . ثمّ مكرديج الكسيح

١) راجع المشرق (٣ : ٢٦٠ , ٦٨٠ , ٧١٩ وحاشية ٩١٥)

الشاعر الناثر الارمنيّ ونعمة ابن الخوري توما الحلبي (راجع المشرق ٥ : ٣٩٦) . وكان آخرهم نيقولا الصائغ ولد من بعدهم فاقتدى بآثارهم . وكان الشيخ الذي اخذ عنهُ نيقولا يختصُّهُ بالعناية لما يرى من نجابتهِ وشدَّة حرصهِ على الدرس

وكان حينئذٍ في حلب احد الكهنة الافاضل من طائفة الروم الكاثوليك اسمهُ الخوري ميخائيل البجع كان درس في رومية العلوم العليا ونال فيها شهادة الملفان ثم عاد الى وطنهِ حلب حيث رُقّي الى درجة الايكونوموس . فرغب نيقولا الصائغ الى هذا الكاهن بان يلقّنهُ الرياضيّات والعلوم الفلسفيَّة واللاهوتيَّة ليستعدَّ بذلك الى الكهنوت اذا ما تيسَّر لهُ يوماً ان ينتظم في سلك ارباب الدين . فاجاب الخوري ميخائيل الى سؤلهِ وانضمَّ الى نيقولا صديقاهُ ابن حكيم والشمّاس عبد الله زاخر وانكبُّوا كلُّهم على هذه العلوم فاستقوا من مواردها العذبة ما امكنهم

وكذلك يؤخذ من رسالةٍ كتبها في ذلك الزمان يوسف مارون الدويهيّ انَّ صاحب الترجمة تتلمذ مع الشمّاس عبد الله زاخر لبطرس التولاوي فدرسا عليهِ الدروس اللاهوتيَّة

غير انَّ الاديب نيقولاوس لم يكن ليكتفي بتهذيب عقلهِ واحراز المعارف البشريَّة والدينيَّة وانَّما كان يشعر في قلبهِ ميلاً قوياً الى عيشة التنسُّك والزهد ليتجرَّد عن العالم واباطيلهِ وينقطع لخدمة الله وحدهُ

وممَّا زادهُ في ذلك رغبةً مَثَلُ نخبةٍ من شُبَّان حلب كانوا خرجوا من وطنهم ورحلوا الى لبنان ليلبسوا فيهِ الاسكيم الرهبانيّ . كان بعضهم موارنةً كالقس جبرائيل فرحات وعبد الله قرألي وجبرائيل حوّاء ذهبوا الى لبنان نحو سنة ١٦٩٥ (١ وبعضهم روماً ملكيّين كالخوري جراسيموس والخوري سليمان سكنا اوَّلاً دير البلمند ثمَّ توغَّلا في لبنان فاحتلاَّ دير القديس يوحنَّا الصابغ قرب قرية الشوير . فكان نيقولا يستطلع اخبار هؤلاء الزُّهاد ويُسَرّ بما يبلغهُ عن عيشتهم النسكيَّة فيغبطهم على كونهم آثروا النصيب الاصلح . فجعل يبحث عن الطريقة المثلى لتبريد ظمائهِ واخماد لظى قلبهِ

---

١) وفي ترجمة حياة المطران فرحات انَّهُ ترهَّب سنة ١٦٩٤ الَّا انَّ قصيدتهُ الاولى التي في رأس ديوانهِ تاريخها سنة ١٦٩٠ ويقال عنها انهُ نظمها في حلب

وفي تلك الاثنـاء نحو سنة ١٧١٣ جاء الى حلب عائدًا من رومية القس جبرائيل فرحات لبعض الشؤون فاجتمع بهِ نيقولا ووجد في صحبتهِ ما زادهُ رغبةً في اقتفاء آثارهِ . وكان هـذا الراهب الجليل يرشدهُ ويحبّب اليهِ المعيشة الرهبانيَّة وجرت مذ ذاك الوقت بين المعلم وتلميذهِ صداقة كانت اواصرها تشتـدُّ مع الزمان. والى هذه العلائق يشير الخوري نيقولا في رثائهِ للمطران جرمانوس فرحات اذ قال :

امامي وذُخْري بل غناني ومضمي غنمتُ بهِ غنمًا مجلُّ غنائمُهْ
فان كنتُ مَنْ يُلفي آلاهُ فانني لظالمُ نفسي شرَّ ظلمٍ وظالمُهْ
وان يكفر الاحسان من ليس شاكرًا فاشبهُ بالكفران من هو كاتمُهْ
حلبتُ بهِ وُسْع الاناء معـارفًا يُلازمني جُنْح الدُّجى وألازمُهْ

ولعلَّ ابن فرحات هو الذي اقنع والدي نيقولا بان يدعا ابنهما يتبع دعوتهُ ويقطع الحبال التي تربطهُ بالعالم وهمومهِ

وفي سنة ١٧١٦ عاد القسّ جبرائيل فرحات الى لبنان حيث عُهدت اليهِ رئاسة رهبانيَّتهِ العامَّة . وفيها ايضًا خرج نيقولاوس صائغ للترهُّب(١ ولا يبعد أنَّ كليهما رحلا معًا وسافرا برًّا . وما لا ريب فيهِ انَّ الشاب نيقولاوس زار قبل دخولهِ دير الشوير ادیرة الجنَّة وجبل كسروان حيث وجد كثيرين من معـارفهِ الحلبيين فكانت زيارتهُ لهم كبلسم على وجعهِ اذ بارح مسقط رأسهِ . ومع هذا تراهُ لا يزال يذكر وطنهُ العزيز ولولا حبَّهُ لربّهِ لما انفصل عنهُ البتَّة . وفي ديوانهِ ما يشهد على رقَّة هذه الشواعر كقولهِ :

يا حبَّذا حلبُ المنيفةُ انَّهـا ارضٌ تناهى حسنُها وبهاؤها
رقَّت معانيها فرقَّ مديحُها مذ رقَّ منها صَفْوُها وصفاؤها
قد لذَّ فيها العيش عيشًا صافيًا اذ لذَّ منها ماؤها وهواؤها
قد طاب منها العنصران فطاب عُنْصُرُ اهلها ابدًا وصحَّ شفاؤها

ومنها: تُغْني الهمومَ غياضُها ورياضُها وحياضُها وثمارها وغاؤهـا

---

١) كذا استفدنا من الاوراق المرسلة من دير الشير عن سنة دخول نيقولا الصائغ الرهبانيَّة الحنوية . وجاء في مختصر تاريخ الروم الكاثوليك (ص ٤٩) انهُ دخل الرهبانيَّة سنة ١٧٠٥ (اي قبل هذا العهد باحدى عشرة سنة) ولا نظنُّ هذا صحيحًا . وفي ديوانهِ (ص ١٨٠ و ٢٣٠) قصيدتان قالهما سنة ١٧١٦ وهو مبتدئ كما سيأتي

من كلّ قطر رادَها الورّاد فانـــشدهوا وقالوا ابن هم اكفاؤها
الله زِدْهـا عزّةً وهيبةً حتّى تذلّ لعزّها اعداؤها

وبعد ان زار الاحباب ووطّد عزيمتهُ على اقتصاص آثارهم وصل دير ابناء ملّتهِ في الشوير. فكان وصولهُ اليهم كيوم عيدٍ لما كانوا يعلمون من فضلهِ وفضيلتهِ. فرحّبوا بهِ واكرموا مثواهُ وزاد بهم فرحهُ اذ راوهُ لم يأتِ الدير فارغاً بل جاء بمالٍ كثير يريد حبسَهُ على الرهبانيّة فيسدّ بذلك حاجاتها ويتلافى فقرها المُدقع

٢ عيشتهُ الرهبانية

بعد ان اخذ نيقولاوس نصيباً من الراحة اسرع الى الرئيس وهو نصر الله كرمة الحلبي المعروف في الرهبانيّة باسم الخوري نيكيفورس فطلب منهُ ان ينظمهُ في سلك الطالبين فاجاب الى دعوتهِ بطيب الخاطر. ومذ ذاك الحين وجّه المبتدئ الحاظهُ الى الكمال فانقطع الى كل الرياضات التي يُروَّض بها طلبة الرهبانيّات كاعمال الاماتة والتواضع والتفرّغ للاصوام والصلوات والشغل اليدويّ. وقد قال في ذلك الوقت اوّل شعرهِ منهُ قصيدة طويلة يعاتب بها نفسهُ ويزجرها عن السيّئات اوّلها:

خطاوك وافرٌ بالوزر طامٍ وطبعُكَ نافر منذ الفطامِ

ولهُ قصيدة أُخرى حسنة انشدها حينئذٍ يصف فيها الراهب الصالح وما يقتضي عليهِ من اعمال النسك ليكون اهلًا بدعوتهِ اوّلها:

يا طالبًا نسكًا خذ بْ قبل ان تُدعى بناسكْ

ومن يطّلع على ما اودع الشاعر نظمهُ من المعاني الروحيّة ووصف الكمال الرهباني يتحقّق بان المبتدئ الجديد بلغ بعد زمن قليل من البرّ والقداسة ما لا ينالهُ غيرهُ الّا بعد الرياضات الطويلة والممارسات المتعدّدة

وكان نيقولاوس يحبُّ في ايّام ابتدائهِ مطالعة كتاب الاقتـداء بالمسيح ويغذي نفسهُ باقاويل هذا التأليف الذهبيّ المتضمّن زبدة الكمال في صفحات قليلة. وقد نظم بالشعر بعض شذراتهِ (راجع ديوانهُ ص ١٠٥ و ١٨٢ و ٢٣٤ الخ)

وما مضى على نيقولاوس شهور قليلة بعد دخولهِ في الدير حتى خلب قلوب الرهبان

جميعاً وجذبها الى حبّهِ لما رأوهُ فيهِ من التقوى ودماثة الاخلاق والحبّ الاخوي والتواضع مع رسوخهِ في العلوم التي لم تكن لتنفخ قلبهُ

وكان الرئيس يشكر الله على هذا الكنز الثمين الذي اغنى بهِ رهبانيّتهُ وكان لا يبتُّ حكماً الّا استشارهُ ورجع الى نصائحهِ. ولمّا مرَّ الوقت المعيّن لنذورهِ ابرز بين يدي رئيسهِ النذور الثلاثة البسيطة الفقر والعفّة والطاعة ولهُ في وصفها الابيات المستجادة (راجع ديوانهُ ص ١٠١ و ١٣٦)

وبعد ثلث سنوات من دخولهِ في الرهبانيّة اتّفق الجميع على رسامتهِ شمّاساً ثمّ قسّاً وذلك سنة ١٧١٩ سامَهُ السيد سلفستروس الدهّان مطران بيروت وكان ذا غيرةٍ على الايمان الكاثوليكي محبّاً للرهبانيّة الشويريّة (١

ومن آثارهِ في تلك السنة انّهُ انفق من مالهِ الخاصّ وبنى كنيسة الدير المقامة على اسم القديس نيقولاوس شفيعهِ (وفي ديوانهِ تاريخها) وشيّد خمس قلالي مجاورة لها

وبعد سنة من سيامتهِ انتُخب مدبّراً ثانياً للرهبانيّة وذلك في ١ حزيران سنة ١٧٢٠. فكان اوّل همّهِ ان يجعل نفسَهُ مثالاً لاخوتهِ في ممارسة كل الفضائل المسيحيّة. وفي شعرهِ صدًى لهذه الافكار المقدّسة ومما نظمهُ في ذلك الوقت وصفهُ للراهب الفاتر وتحريضهُ اخوتهُ على حبّهِ تعالى (راجع ديوانهُ ص ١٨١) وذمّهُ للتغزّل (ص ١٨٥). ولمّا استنشدهُ احد اخوتهِ قصيدةً يبعث بها الى بعض خلانهِ في الديار المصريّة تهنئةً لهُ بالزواج استهلّ قصيدتهُ بهذه الابيات:

لكمُ التهاني فالزواجُ جميلُ لكنّما ثوبُ العفاف جليلُ
قد كنتُ اهوى ان ارى كلَّ الورى مثلي فهل لذوي الجهادِ مثيلُ
فالارضُ يملأها التناجُ ويملا ال ملكوتَ رهط عاش وهو بتولُ
التابع الحَمَلَ الذبيحَ وشأنُهُ لطهورهِ التقديسُ والترتيلُ
سرٌّ تشرَّف في ولادةِ مريمٍ قد زانَ هام أُهَيْلِهِ الاكليلُ

---

١) وعليهِ فيكون قول صاحب مختصر تاريخ الروم الكاثوليك (ص ٤٩) في ان الخوري نيقولاوس ارتسم كاهناً سنة ١٧١٢ غير سديد. لانّ عمرهُ في تلك السنة كان عشرين عاماً ولا يجوز للكاهن الكاثوليكيّ ان يكون في سنّ العشرين. ثمّ مرَّ قولنا بانهُ دخل الرهبانيّة سنة ١٧١٦ ولم يكن بعد كاهناً

وكان الخوري نيقولاوس مع حرصهِ على قداسة نفسهِ غيوراً على كمال اخوتهِ يحضُّهم ما امكنهُ على الترقّي في كلّ اسباب البرّ. وكان مع ذلك يتلهّب غيرةً على الايمان الكاثوليكيّ يسعى غاية امكانهِ في نشرهِ والدفاع عنهُ لا يهاب في جانب الله كبيراً ولا صغيراً حتى شاع اسمهُ في انحاء سوريّة

وفي تلك الاثناء فرغ كرسيّ حلب بارتقاء السيّد اثناسيوس الدبّاس الى الرتبة البطريركيّة خلفاً لكيرلُّس الخامس المتوفّى في العشر الاوّل من سنة ١٧٢٠. فطلب الحلبيُّون الى البطريرك ان يسقّف عليهم الخوري نيقولاوس وكاتبوهُ في ذلك الّا انّ تواضعهُ ونفورهُ من المناصب العليا حملاهُ على رفض الاسقفيّة فأُقيم بدلاً منهُ احد اخوتهِ الرهبان وهو الخوري جراسيموس وذلك في ٢٦ ك ١ سنة ١٧٢٠

وفي ٢٣ نيسان من السنة صار في دير القديس يوحنّا السابق اوّل مجمع عام للرهبانيّة. وفيهِ نذر الاب العام الخوري نيكيفوروس مع بقيّة المدبّرين والرهبان النذور الاحتفاليّة وهي الفقر والطاعة والعفّة ومذ ذاك ابتدأت في الرهبانية النذور الاحتفالية. وزادوا نذراً رابعاً وهو الاتضاع ابرزوهُ مدّةً مع النذور الثلاثة الى ان تثبّتت فرائض الرهبنة فأُبطل

وبعد انتهاء المجمع عهد اليهِ رئيسهُ ان يتفقّد اديرة الرهبانيّة ويُصلح ما بها من الخلل وكانت هذه الاديرة ثلاثة دير مار اشعيا القريب من برمانا ثم دير مار الياس محيدثة ودير السيّدة في راس بعلبك. وقد كابد في مهمّتهِ هذه مشقّاتٍ كثيرة من قبل بعض المنفصلين الذين اثاروا عليهِ غضب البطريرك اثناسيوس وعاكسوهُ في اعمالهِ الخيريّة. وفي ديوانهِ (ص ٢٣٩) ما يُشعر بهذه المحن التي قاساها خصوصاً من قبل احد الرهبان الذين خدعهم الطمع بالرئاسة فجحدوا الايمان الكاثوليكيّ ولاذوا باهل الدنيا لترويج مطامعهم. لكنّهُ اثابهُ الله تحمّل كل هذه المحن بالصبر الجميل مستسلماً اليهِ تعالى واثقاً بعنايتهِ وهو مع ذلك يهيم متشوّقاً الى دير مار يوحنّا ووالديهِ واخوتهِ وقد كتب حينئذٍ (راجع ديوانهُ ص٢٣٥):

يا نسيم الصبا تحمّل سلامي ثمّ بلّغ تحيّةَ المُستهامِ
ذلك الواديَ الخصيب صباحاً ورُباهُ المنيفة الاكرامِ

وفي هذه القصيدة يصف كثيراً من احوال الرهبان الشويريين في مناسكهم

وعباداتهم بشعر منسجم يسيل رقّـةً ولطفاً :

ليس فيهم وان دجا الليلُ كابٍ ... غافلُ اللحظ عاثرُ الأقدامِ
لابسين الحداد فوق جسومٍ ... شفَّ من تحتها نحيفُ العظامِ
لهمُ البرُّ والعفافُ وشاحٌ ... غير مُستردمٍ مدى الايّامِ
منطقتْ حقوهم مناطقُ نسكٍ ... اكسبتهم طهارة الاجسامِ
توّجتهم قلانسٌ واقياتٌ ... خبلتها مغفرًا على كلّ هامِ

الى ان قال : ان تَرُمْ جنّةَ النعيمِ بارضٍ ... تَعِمت من خصائص الإنعامِ
ملكوتٌ يضمُّ كلَّ طهورٍ ... مالكوهُ ملائك العلّامِ
فهو دير الحصور مار يُحنّا ... والنبيّ الكريمِ نسلِ الكرامِ

ولمّا انهى الخوري نيقولاوس المهمّة التي وكلها اليهِ رئيسهُ عاد الى دير الشوير في سنة ١٧٢٢ . وفيها منحهُ الله فرحاً عظيماً بقدوم صديقهِ المُخلص الشماس عبد الله زاخر من حلب الى لبنان هارباً من اعدائهِ وكان نزل في زوق مكائيل فاجتمع بهِ الخوري نيقولا ونشّط عزائمهُ وحرّضهُ على اتمام المشروع الذي فكّر فيهِ وهو انشاء المطبعة التي نُقلت بعد ذلك الى الشوير . وللخوري نيقولا قصيدة عامرة الابيات يمدح فيهـا صديقهُ ويعزّيهِ في التجارب المتعدّدة التي المّت بهِ من قبل المشاقين اوّلها :

لَعَمْرُكَ انَّ الصبرَ غايتُهُ القَدْرُ ... وحسبُكَ قدرٌ من خلائقهِ النصرُ

ومنها : فباقه من قد عاف خدناً وموطناً ... لهُ الله خِدْنٌ والسّماء لهُ خِدْرُ
وقالوا تخيّرْ أنفساقُ ام الثوى ... فقلتُ ألا والله خيرٌ ليَ الهجرُ
فلا خيرَ في دارٍ وان قد ألفتَهـا ... تبارى بها الاضلالُ والضرُّ والمكرُ

وفي سنة ١٧٢٣ في ١١ أيّار قُلّد رئاسة دير مار يوحنّا فضاعف همّتهُ وافرغ كل مجهودهِ في تحسين احوالهِ المادّيّة والادبيّة . وكذا فعل في دير مار اشعيا في السنة التالية لمّا أُقيم عليهِ رئيساً بدلاً من الخوري جنّاديوس . وكأنّ الله انتدبهُ الى رئاسة هذا الدير ليقدّم لاخوتهِ الرهبان مأوًى وملاذًا لمّا ثارت عليـهِ وعلى اخوتهِ ثوائر المنفصلين فانّ سلفستروس الدخيل لمّا رأى ما للرهبان الشويريين من المساعي المبرورة وانّهم بارشاداتهم ومواعظهم وتعاليمهم يرشدون كثيرين الى الحقّ ناصبهم في اعمالهم وتمكّن من نفيهم من اديرتهم حتى دير مار يوحنّا الصابغ ودير مار الياس محيدثة فاضطرّ الرهبـان ان يجتمعوا كلّهم في دير مار اشعيـا حيث استقبلهم الخوري نيقولا بحنوّ الاب لاولادهِ الاعزّاء واجتهد في ان يخفّف عليهم بلطفهِ ومحبّتهِ أعباء هذه المحن وكان الرهبان مع هذا

في ضيقٍ عظيم يجتمع خمسة او ستّة منهم في قلالي صغيرة لا تزيد على عشر اذرع مربّعة مع انّ هذا الرئيس الهمام كان زاد على القلالي القديمة ثماني غرف شيّدها لهذه الغاية

وقد نال الرهبان من الضنك والجوع والعري ما لا يصفهُ قلم. امّا الخوري نيقولا فانّهُ تأثر من حالة اخوتهِ تأثيرًا عظيماً وهو يُعدُّ اوجاع كل واحد منهم كاوجاعهِ الخاصّة وقد بلغ بهِ ذلك الى أن اصيب بحمّى خبيثة كادت تذهب بحياتهِ الثمينة لولا انّ الله حنَّ على ابنائهِ وردَّ لهم اباهم بعد ان يئسوا من شفائهِ. وما ابلَّ من مرضهِ حتى قام وطرق ابواب الامراء اللمعيين في صاليا ودخل على الامراء الشهابيين وبيّن حقوق رهبانيّتهِ حتى رجّعوا لهم الاديرة المسلوبة. وما اكتفى بان يهتمّ بشؤون رهبانيّتهِ بل خدم الرهبان اللبنانيين بان نال لهم من الامير حسين واولادهِ في صاليا دير سيدة طاميش. وفي ديوانهِ قصائد نظم قلادتها في ذلك الوقت مادحاً بها الامراء اللمعيين منها قصيدتهُ الداليّة التي اوّلها:

العدلُ يبني والامان يشيّدُ والجورُ يفني والهوانُ يبدّدُ

وفي سنة ١٧٢٧ اتّفقت اصوات اخوانهِ الرهبان على ترقيتهِ الى الرئاسة العامّة على جمعيّتهم. ومع كونهِ لم يحبّ الرئاسة والترفّع لم ير بُدًّا من التلبية لمشيتهِ تعالى فباشر هذه الرتبة بما طُبع عليهِ من النشاط والغيرة وقصارى غايتهِ ان يزيد شعب الله فضلًا وصلاحًا. وقد بقي في هذا المنصب اربع سنوات توالت عليهِ في اثنائها المصائب وابتُلي بضروب الاكدار فانّ سلفستروس البطريرك الدخيل وحزبهُ ما علموا بانتخاب الخوري نيقولا رئيساً عاماً على الرهبان الشويريين حتى تصدّوا لهُ ونصبوا لهُ المكايد واذاقوهُ الموت الوانًا. فانّهم ضربوا الاخماس بالاسداس وبذلوا النفس والنفيس في احباط مساعيهِ وانتزاع الاديرة من ايدي رهبانهِ فنجحت مكايدهم وفاز سهمهم فهجموا على دير مار يوحنّا ليلًا وطردوا منهُ رهبانهُ فعادوا الى دير مار اشعيا منتظرين بفروغ الصبر ان يُسرّي الله عنهم. لكنّ الخوري نيقولاوس لم يَخُرْ عزماً ولم يضعف نفساً فانهُ عاد الى حكّام لبنان واوقفهم على ظلم اعدائهِ فاقرّوا بحقوق جمعيّتهِ واجبروا المغتصبين على ردّ المسلوب بعد شهرين. فقال في شكر ناصرهِ الامير حيدر الشهابيّ قصيدتهُ التي اوّلها:

أُضحي وابصاري تغضُّ وتُبصر وتيتُ افكاري تصوغ وتَكسِرُ

ولهُ ايضاً قصيدة يمدح بها القاضي عبد اللطيف الذي حكم لهُ ولرهبانهِ اولًا:

محتدَ المجد والعلاء المنيفِ سِدْرة الفخر ذا المقام الشريفِ

وبينما كان يهتمّ بامور رهبانهِ بغيرةٍ لا تعرف الملل امتحنهُ الله ثانيةً بمرضٍ عُضال سرى اليهِ بخدمتهِ لاحد رهبانهِ وهو الاب بروكوبيوس الطبيب. وكان هذا دُعي الى تمريض قرينة الامير عسّاف ابنة الامير حيدر في صاليا وكان داؤها معدياً فانتقل اليهِ المرض ومنهُ الى الخوري نيقولاوس وتفاقم الداء حتى ساقهُ الى ابواب المنون. فعلم الشماس عبد الله زاخر بثقل مرضهِ وكان وقتئذٍ في الزوق فاسرع الى الاب يعقوب الراهب اليسوعيّ المتطبّب في عينطورة وطلب منهُ ادويةً منحهُ الله بها الشفاء التام

وفي سنة ١٧٣٠ طلب صاحب الترجمة من المجمع الملتئم في دير مار يوحنا ان يُعفى من الرئاسة على الرهبانيّة فأُجيب الى الحاحهِ بعد ان رفضوا طلبهُ غير مرّة (١ وانتُخب الخوري مكسيموس حكيم. لكنّهُ لم يُعفَ من عدّة مهامّ أُنيطت بهِ كالمدبريّة ووكالة دير الحيدثة. وفي ايلول من السنة التالية أُقيم وكيلًا عامًّا ونائباً عن الاب العام الذي تفرّغ عن الرئاسة

ومما سعى فيهِ في تلك الاثناء فتحُ دير للعابدات على اسم سيدة البشارة في الزوق فاشترى هناك مزرعة سنة ١٧٣٢ وبنى فيها ديرًا جعل فيهِ الراهبات. وشاركهُ في هذا العمل صديقهُ الشماس عبد الله زاخر. الّا انهُ لقي في سبيل هذا المشروع من المشاكل ما يطول شرحهُ هنا ودام الامر الى سنة ١٧٤٨ حيث ازال الكرسيّ الرسوليّ تلك العقبات واعاد الصلح بين ابناء الكنيسة

وفي ١٢ ت ٢ من السنة ١٧٣٢ عُقد مجمع عام في دير النبيّ اشعيا فقلّد الخوري نيقولاوس الرئاسة العامّة ثانيةً فعاد اليها بنشاطهِ المألوف وتجرُّدهِ المشهور وبقي في هذا المنصب الى آخر حياتهِ في سنة ١٧٥٦ وهو يتفانى في خير اخوتهِ ويتلهّب غيرةً على ترقّيهم في البرّ والآداب

وفي سنة ١٧٣٤ اظهر غبطة البطريرك كيرلُس طاناس الكاثوليكيّ الانطاكيّ رغبتهُ في توحيد الرهبانيّتين الشويريّة والمخلصيّة. لكنّ الخوري نيقولاوس بعد مفاوضة

١) وعليهِ فلا يصحّ ما جاء في مختصر تاريخ طائفة الروم الملكيين (ص ٣٧) ان الخوري نيقولاوس اقام في الرئاسة من سنة ١٧٢٧ الى ١٧٥٧

آباء جمعيَّتهِ لم يرَ في هذا الاتحاد صلاح الرهبانيَّتين لما كان بينهما من التباين في الروح والعادات والطرائق النسكيَّة فعرض على البطريرك رأي رهبانهِ وتثنُّعهم وظلَّ يدافع عن حقوقهم الى ان حظيت ملاحظاتهُ قبولًا عند مرجعها الاعلى

وبسعيهِ ايضًا منح الحبر الاعظم اكليمنضوس الثاني عشر الرهبانيَّة الشويريَّة مقاماً في عاصمة الكثلكة. فان الخوري نيقولاوس كان ارسل في سنة ١٧٣٣ الابوين نكتاريوس ميره وبروكوبيوس الطبيب الحلبيّ باسم الرهبانيَّة واصحبهما بتحاير منهُ ومن السيد مكسيموس حكيم الراقي حديثًا كرسيّ اساقفة حلب ومن الاب بطرس فروماج اليسوعيّ ومن بعض الآباء الكبوشيين. فاحسن الاب الاقدس وفادتهما وشملهما بنظرهِ الابوي وتكرَّم على الرهبانيَّة بكنيسة سيدة السفينة كما شرح ذلك في المشرق (٤ : ٥٦٦) سيادة الارشيمندريت الكسيوس كاتب واقام لها كردينالًا محامياً وهو اينوشنسيوس بتره في ١٨ ك ٢ سنة ١٧٣٥

واعظم خدمةٍ ادَّاها الخوري نيقولاوس في تلك الاثناء لرهبانيَّتهِ انهُ وضع فرائض الرهبانيَّة الشويريَّة مستندًا فيها الى قوانين الآباء الاقدمين وخصوصًا القديس باسيليوس الكبير وارسلها الى رومية سنة ١٧٤٧ مع الابوين يوحنَّا النقَّاش الدمشقي وتوما كرباج الحلبيّ فاثبتها البابا بناديكتوس الرابع عشر بعد الفحص المدقَّق في سنة ١٧٥٧ وبراءة التثبيت مطبوعة في صدر كتاب الفرائض. ثم اثبت ايضًا البابا نفسهُ فرائض راهبات دير سيدة البشارة سنة ١٧٦٣ وهي ايضاً من تأليف الخوري نيقولاوس

وكانت السنون الاخيرة من حياة هذا البارّ أيام هدوّ وسلام افرغ غاية جهدهِ لتحسين امور رهبانيَّتهِ ماديًّا وادبيًّا. وقد اتاح لهُ الله في سنة ١٧٥١ ان يتبرَّك بزيارة الاماكن المقدَّسة وشفاء غليله برؤية الارض المرتوية بدم مخلصهِ يسوع الحبيب. ثم رجع الى دير الملاك ميخائيل في الزوق وهو لا يزال يكدّ ويتعب ويعظ حتى اوائل الشهر كانون الاوَّل من سنة ١٧٥٦ فاجتمع في اثنائهِ الرهبان لجمع عام فاستقال الخوري نيقولاوس وطلب منهم ان يعفوهُ فلم يقبل اصحاب الاصوات استقالتهُ فلمَّا رآهم لا يصغون الى توسُّلاتهِ قال لهم: ان لم تعفوني انتم فالله نفسهُ يعفيني. قال ذلك كأن الامر أُوحي اليهِ من قبل الله. وفي غد ذلك النهار وهو اليوم السابق لحفلة المجمع حضر تلاوة الفرض وقدَّم الذبيحة الالهيَّة وبعد الشكر صعد الى غرفتهِ بتمام الصحة ودعا متقدّمي

الرهبان واوصاهم وصاياهُ الاخيرة كأنهُ يودّعهم الوداع الاخير. وفيما هو يكلمهم شعر في جسمهِ بضعفٍ عقبهُ حمّى شديدة فتقبّل الاسرار المقدّسة بكل ورع وخشوع ومُسح المسحة الاخيرة بيد السيد اثناسيوس دهّان مطران بيروت خلف السيّد سلفستروس الدهّان والذي صار بعدئذٍ بطريركاً وتسمّى ثاودوسيوس. وكان الرهبان في غضون ذلك قد اجتمعوا عند فراشهِ فاخذ المحتضر يودّعهم ويحرّضهم على الثبات في دعوتهم والمحافظة على واجباتهم الرهبانيّة وباركهم ثم امسك بيدهِ الصليب المقدّس وقبّلهُ وضمّهُ الى صدره واسلم الروح بكل سكينة وذلك في ١٧ كانون الاوّل من سنة ١٧٥٦

وهنا حدّث بحزن اخوتهِ ولا حرج فانّهم بكوهُ بكاء اعزّ الآباء ولم يكادوا يقبلون تعزيةً لولا معرفتهم انّ الله دعا اليهِ عبدهُ الامين ليكافئهُ عن اتعابهِ ويقيمهُ شفيعاً لهم يتقرّبون بهِ الى عرش جلالهِ

وقد احتُفل بجنازتهِ احتفالاً عظيماً مهيباً حضرهُ كلّ سكّان قرية الزوق والقرى المجاورة واودع جسمهُ الطاهر في ضريح فوق ضريح السيد جراسيموس مطران حلب في كنيسة دير الملاك ميخائيل

٣ بعض مآثر الخوري نيقولاوس الصائغ

سطّرنا في الصفحات السابقة ملخّص حياة رجل الله الخوري نيقولاوس الّا اننا لم نذكر من مآثرهِ الّا النزر الزهيد وكنّا نودّ لو نفرد لهذه الاعمال باباً مستقلاً لولا ضيق المقام فنكتفي بالاشارة الى شيء منها ونبتدئ بذكر بعض فضائلهِ التي ازدان بها في حياتهِ

١ (فضائلهُ) قد نوّهنا في ترجمة حياتهِ الى كثير من الفضائل السامية التي مارسها. ومما خُصّ بهِ محبّة عظيمة للربّ الاله تراهُ يتغزّل في كمالاتهِ ويصبو الى جلالهِ ويصف في شعرهِ سرّ ثالوثهِ غير المدرك وانبثاق الروح الاقدس (ص ١٤٥ من ديوانهِ) وتجسّد الابن الوحيد مع ذكر اطوار حياتهِ على الارض من ميلادهِ الى موتهِ (ص ٥٨, ١٣١, ١٥٧, ٢١٧ الخ) وسر قربانهِ الاقدس الذي وصفهُ بابدع الصفات في مقصورة يحقّ لها ان تُرقم باحرف ذهبيّة (ص ٢١٤) وافاض في مناقب والدة الله التي كان متعبداً لها واثقاً بمراحمها وقد مدحها منذ دخولهِ في الرهبانيّة بشعرهِ الرائق (ص ٣٢, ٤١ الخ)

ومن محبّتهِ هذه المتقدة لربّهِ نتجت محبّة أُخرى رسخت في قلبهِ رسوخ الجبال نريد محبّتهُ للكنيسة الكاثوليكية واعتصامهُ بالصخرة البطرسيّة فلا تكاد ترى صفحةً من

ديوانهِ الَّا اودعها ما كان صدرهُ يكنُّهُ من عواطف الحبّ والاخلاص لهذه الكنيسة ولاحبارها المعصومين عن الضلال في التعليم الدينيّ . وتراهُ بخلاف ذلك يتتبَّع الشقاق بهجوهِ ويندّد بزعمائهِ ويكشف معايبَهُ ومضارَّهُ ولهُ في ذلك من التفنُّن ما يقضي لهُ بالعجب . ويلحق بهذا الباب قصائد قالها في بعض ضحايا الشقاق كابراهيم الدلّال (ص ٨٠) والقس بطرس الحلبيّ (ص ٢٥٩)

٢ (ابنيتهُ) لهذا البار ابنية عديدة شيَّدها من مالهِ الموروث واهداها للرهبانيَّة الشويريَّة . منها ما ذكرناهُ سابقاً كبيعة القديس نيقولاوس في دير مار يوحنَّا وقلالي دير مار اشعيا ودير راهبات البشارة في الزوق . وقد اوقف في سنة ١٧٢٦ على دير مار اشعيا ارضاً زُرعت توتاً . وممَّا شُيِّد بسعيهِ من مال الرهبانيَّة دير الملاك ميخائيل ثمَّ بنى لهُ رواقاً في سنة ١٧٥١ . وفي سنة ١٧٣٤ رمّم دير مار يوحنَّا ووسَّعهُ . وفي سنة ١٧٥٠ اشترى من الشيخ شاهين تلحوق ارضاً موقعها قرب مكين عمَّر فيهـا ديرًا على اسم القديس الشهيد جاورجيوس . وعُرف الدير بدير الشير لموقع بنيانهِ . وهو اليوم دير كبير مشهور بغزارة مائهِ وجودة هوائهِ ونضارة غياضـهِ . وفي سنة ١٧٥١ اصلح دير النبي اشعيا وبنى قبَّة جرسهِ . واشترى في زحلة ارضاً عمَّر فيها ديرًا على اسم القديس الياس المكنَّى بالطوق وهذا كان خاتمة ابنيتهِ رحمهُ الله رحمةً واسعة واجزل ثوابهُ

٣ (تآليفهُ) اشهر تآليف الخوري نيقولاوس ديوانهُ المشهور الذي طُبع اوَّلاً في مطبعتنا سنة ١٨٥٩ على علاَّتهِ ثم نظر فيهِ الشيخ ابراهيم اليازجيّ واصلح شيئاً من شوائبهِ فطُبع بعد ذلك ستّ طبعات متوالية . وقد كانت في الطبعة الاولى نحو عشر قصائد أُخرمنها ارجوزتهُ في الصلاة ضرب المصلح عنها صفحاً لبعض ركاكة في نظمها . وما لا ينكرهُ احد انَّ شعر الخوري نيقولاوس رقيق المباني بليغ المعاني كثير التفنُّن لهُ في المديح والرثاء والتهاني والتاريخ وجميع الفنون الشعريَّة ما يشهد لهُ بطول الباع وسموّ القريحة ولهُ البديعيَّة الحسنـة في مديح السيِّد المسيح ورسلهِ الاطهار في ١٥٦ بيتاً ومن تآليفهِ ايضاً الفرائض الرهبانيَّة التي سبق ذكرها وقد اثنى عليها البابا اكليمنضوس لمَّا اثبتها . وممَّا افادنا حضرة الاب قسطنطين باشا انَّ للخوري نيقولاوس كتاباً كبير الحجم يتضمَّن مواعظ على مدار آحاد السنة والاعيـاد يوجد منهُ نسخة في مكتبة عين تراز . ولهُ تآليف أُخرى أُحرقت في سنة ١٨٦٠ بعين الدوق في زحلة مع كتب عزيزة الوجود

كان استعارها من دير الشير السيد باسيليوس شاهيات الحلبيّ اذ كان اسقفًا على زحلة. فذهبت هذه الكنوز الثمينة ضحيّة النار

هذه بعض مآثر الخوري نيقولاوس الصانع دوّنّاها هنا ليأتسي بها ابناء الرهبانيّة الباسيليّة ولعلّ هذه الخلاصة تبعث في بعض كتبهم الرغبة في ان ينشروا ما بقي مطويًا من اخبارهِ

رسالة في وحدانيّة الخالق وتثليث اقانيمهِ

تأليف ايليًا مطران نصيبين

عُني بنشرها الاب لويس معلوف اليسوعيّ

تَوطِئَة

انَّهُ لمن المقرَّر لدى العلماء العارفين بالآداب النصرانيَّة ان صاحب كتاب دفع الهمّ ايليًا النصيبيني قد ترك للسَّلف فيما تركهُ من التآليف الشائقة مقالةً في وحدانيَّة الخالق وتثليث أقانيمهِ. وكنَّا مع مَن هام بآثار العرب ووقف لاحيائها جُلَّ اتعابهِ نتأسَّف على انَّ يد الدهر اغتالت تلك الدرَّة الثمينة (راجع المشرق ٥ : ٢٤٠)

بيد ان الله يسَّرنا الى الاكتشاف عنها فيما دُفن من الدفائن في مكتبة اكسفورد الشهيرة بل تُل فيما حُفظ كأثمن اللآليّ في ذلك المتحف البُدْلاني الكريم. وجدتُها ضمن مجموع لم اعهد لهُ شبهًا في المكاتب الاوربيَّة وقد وصفهُ بعض الوصف صاحب فهرست تلك المكتبة في المجلَّد الاوَّل منهُ تحت عدد ٣٨ (Hunter. 240). وهذا المجموع يحتوي على عدَّة تآليف او مقالات يبلغ عدد صفحاتها ٢٦٠ صفحة. اما مضامين هذه المصنَّفات فهي كما ترى: ١ً في اوَّل الكتاب تقويم السنة القبطيَّة. ٢ً شرح الامانة. ٣ً كتاب درياق العقول في علم الاصول للقسّ رشيد ابي الخير ألَّفهُ سنة ١٠٧٢ م على ما ورد في الفهرست الباريسيّ. ومنهُ نسخ معهودة في مكاتب شتَّى. وفي خزانة كتبنا الشرقية منهُ نسخة منقولة عن دير القديس يوحنَّا الصابغ في الشوير. ٤ً المقالة الاولى لبولس البوشيّ اسقف مصر في معرفة الاله المتجسّد من القياس العقليّ. ٥ً المقالة الثانية لابي الفرج عبد الله بن ابي الطيّب في التثليث والتوحيد. ٦ً مقالة ليحيى النحويّ في الدلالة على حدث العالم. ٧ً مقالة لحنين بن اسحاق في حقيقة الاديان وكيفيَّة ادراكها. ٨ً كلام للآباء الفضلاء في اصناف سياسة البارئ. ٩ً ذكر اجتماع مطارنة الطوائف عند بعض الوزراء بالمشرق ١٠ً مقالة ايليًا الأثل مطران حمص. يذكر فيها اسباب تنازلهِ عن الاسقفيَّة ويتطرَّق من ذلك